

حاميات برقة وطرابلس، ودورها في مقاومة غارات الأساطيل البحرية المعتدية عليها خلال العصور الإسلامية

د. شريفة عبدالرزاق محمد الشريف(*)
كلية الآداب . جامعة سبها . ليبيا

مقدمة:

من الملاحظ أنه عبر العصور المختلفة ومع تناغم أمواج حوض البحر المتوسط، فإن قاطني ضفتيه الشمالية والجنوبية كانوا في حركة دؤوبة ومستمرة، لاختصار الطريق البحري للمسافات ولتفوقهم في الحركة البحرية، وكان لهذا النشاط البحري إيجابياته وسلبياته على مدن حوض البحر المتوسط الجنوبية (برقة وطرابلس) فظهر بعرض البحر تواصل دائم لأغراض سلمية: كالمبادلات التجارية التي انعشت بدورها التجارة الإقليمية في الموانئ الإسلامية الليبية مع

(*) Email: afia300@yahoo.com

نظيراتها على ذلك الحوض، نتيجة الوئام الذي ساد على المنطقة في بعض الفترات بين الضفتين، وبخاصة بعد سيطرة البحرية الإسلامية على حوض المتوسط.

بالمقابل كان لهذا التواصل إيجابيات، فله جوانب سلبية على الضفة الجنوبية تحديداً حيث أنّ حركة التواصل في عرض البحر المتوسط أخذت طابعاً تنافسياً عدائياً استعمارياً عسكرياً في بعض الفترات كطريق آخر للتوسع الأوروبي من الجانب السياسي والاقتصادي: فقد سجلت لنا كتب التاريخ العديد من عمليات القرصنة، ومحاولات حكام النصارى في الضفة الشمالية من إفرنج وأسبان ونورمان وجناونة وبنادقة وغيرهم، سعيهم المتواصل لضم الضفة الجنوبية للبحر المتوسط والسيطرة عليها، وإخضاعها لسلطاتهم مستغلين ضعف سيطرة البحرية الإسلامية على البحر في بعض الفترات، كذلك استغلال فترات الفتن التي شهدتها منطقة شمال أفريقيا ومدن الساحل الليبي تحديداً خلال بعض الحقب التاريخية.

ونظراً لاختلاف الأديان والعرقيات فكان الصراع على أشده من قبلهم؛ لاختراع المدن على سواحل الضفة الجنوبية لحوض المتوسط، خاصة من قبل الأسبان الذين وضعوا على كاهلهم الانتقام من المسلمين في أي مكان، فكان إقليم برقة وطرابلس الواقعان على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط (الساحل الليبي) الأكثر تأثراً من هذه الهجمات.

قام سكان وولاية المدن الليبية بعد الفتح الإسلامي لها بالاهتمام بالاستحكامات، وبناء العمارات الحربية للدفاع عن برقة وطرابلس وغيرها من المدن على الساحل الليبي، فبنوا الأسوار والقلاع والحصون والأبراج والمحارس لحمايتها، وتقوية خط الدفاع عنها من النصارى .

وتعرضت هذه المدن للحصار والاحتلال لفترات زمنية مختلفة من قبل الروم والإفرنج والأسبان في العصر الإسلامي، إلا أنّ حكامها وولاتها مع سكانها الشجعان قاوموا هذا الغزو بجميع أنواعه ودافعوا عن مدنهم ووطنهم بكل بسالة، ممّا أجبر عدوهم على الانسحاب وجر

ذبول الهزيمة في بعض الغارات لعدم تمكنهم من اختراق دفاعات المدن المحصنة والمرابطة دفاعاً عن الأرض والعرض، فكان لسكانها الليبيين وغيرهم من المسلمين الحضور الفاعل في الحرب والسلم، ولكن تمكن الغزاة في بعض الغارات من احتلال هذه المدن والعبث بها وتدميرها وتظهر في تلك الأثناء غيرة المسلمين في المدن المجاورة كقابس وأفريقية الذين حاولوا تقديم يد العون لأهل طرابلس بكافة الطرق لتخليصهم من الغزاة.

من هنا ارتأينا دراسة الثغور والحاميات على الشواطئ الليبية ودورها في تحصين المدن وحراستها وهذه الدراسة عبارة عن دراسة من جانب واحد للمتوسط الغادر في الحقبة الإسلامية الوسيطة، رأينا أن نستعرض فيها دور الحاميات الليبية في الاستطلاع البحري ورصد تحركات الأساطيل المعادية والاستعدادات لمقاومتها وتحرير المدن منها وإجلاء تلك الأساطيل وإحراق الخسائر الفادحة بها وباصحابها، ومناقشة الأسباب والظروف التي شجعتهم على الغارة والهجوم والظروف التي أضعفت مقاومة الليبيين لبعض تلك الهجمات والوقوف على آثار الغزاة على الساحل الليبي كالجرائم التي ارتكبوها في حق الليبيين وتدميرهم للتحصينات والأسوار بأسلحتهم الحديثة المتطورة، وعرض سيل التضحيات التي قدمها الليبيون والقادة والولاة والحكام في التصدي للهجمات البحرية على السواحل الليبية.

نبين خلال هذه الدراسة تطور تحصينات المدن الليبية على مدى القرون العشرة للهجرة من خلال ما ذكره الرحالة الذين مرّوا على هذه المدن، ودور تلك التحصينات أثناء الغارات التي تعرّضت لها تلك المدن خلال العصور الإسلامية. وسوف نركز في هذه الدراسة على تعرض مدينة طرابلس لغارات من قبل البنادقة والصقليين والإفرنج والإسبان والجنوبيين ودور التحصينات والاستحكامات في صد الغزاة ومناقشة الأسباب التي جعلت بعض الهجمات تسفر عن احتلال

طرابلس والسيطرة عليها من قبل النصارى، كما سنبين بسالة الليبيين وشجاعتهم في مقاومة هذه الحملات الصليبية بحرصهم على تحصين المدن وتطوير تلك التحصينات.

يقوم هذا البحث على عدة محاور:

أولاً: الاستحكامات الدفاعية على تغور ليبيا البحرية ومراحل تطورها خلال العصور الإسلامية.
ثانياً: تصدي الليبيين في طرابلس وبرقة لغارات الرومان والإفرنج والأسبان ونتائجها وأسباب نجاح دفاعاتهم وإخفاقها.

ثالثاً: النتائج.

أهمية الدراسة:

تعود أهمية الدراسة إلى أنها تتناول موضوعاً مهماً يتعلق بتاريخ ليبيا الإسلامي يوضح قوة تحصينات المدن الليبية الساحلية، وتطور العمارة الحربية والاستحكامات الدفاعية فيها ونوضح صور وملامح التضحيات والبطولات التي قام بها الليبيون في التصدي للغزاة الإفرنج الذين اتخذوا من جزيرة صقلية مركزاً لتحركاتهم وغاراتهم، ومن البحر المتوسط سبيلاً للوصول لأهدافهم والوقوف على أسباب احتلال بعض الغزاة للمدينة طرابلس وتمكنهم منها.

أهداف الدراسة:

تكشف هذه الدراسة مدى اهتمام الدولة الإسلامية في شمال أفريقية وولاتها بالتحصينات والمحارس وبناء الأساطيل لحماية المدن الإسلامية من الجهة البحرية وتكشف مدى التعاون بين مدن الجوار لمواجهة خطر النصارى الإفرنج واستماتة الأهالي في الدفاع عن مدنهم وتكشف أيضاً مدى حقد الإفرنج على الإسلام والمسلمين.

إشكالية الدراسة:

بالرغم من وجود الكتب والمصادر المختلفة التي تحدثت عن تاريخ المنطقة البحري، إلا أنّ غالبيتها لا تعبر للبحرية الليبية وتحصينات المدن الليبية أيّ اهتمام إلا ماكتبه بعض الرحالة الذين اتجهوا شرقاً وغرباً ومرّوا على مدن ليبيا الساحلية بوصفهم للمدن أمّا من الناحية التاريخية فلم تسعنا المصادر بروايات دقيقة عن المعارك وهجوم النصارى وتصدى الليبيين له.

منهج الدراسة:

ستعتمد الباحثة في هذه الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي الاستنباطي الذي عماده تحليل الأحداث والوقائع التاريخية المنتقاة في سياق علمي سليم وربطها في وحدة متكاملة مع استخدام المنهج المقارن.

مجال الدراسة:

المجال الزمني: من القرن الأول الهجري حتى القرن العاشر الهجري.
المجال الجغرافي: سواحل شمال أفريقية تحديداً الأراضي الليبية من إقليم برقة شرقاً حتى إقليم طرابلس غرباً وحوض البحر المتوسط وجزره.

أولاً: الاستحكامات الدفاعية على سواحل ليبيا ومراحل تطورها خلال العصور الإسلامية

كان الروم يسيطرون على حوض البحر المتوسط، ويسمى هذا البحر بالبحر الرومي،⁽¹⁾ وفيه جزر كثيرة عامرة مثل صقلية وميورقة وسردانية.⁽²⁾ وتمتعت الإمبراطورية البيزنطية التي ورثت أملاك الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف بسواحل كثيرة منها سواحل البحر المتوسط الشمالية والجنوبية بما في هذا البحر من جزر، ولعبت بحريتهم دوراً كبيراً في هذا الحوض لربط أطرافه الشمالية في أوروبا مع أطرافه الجنوبية في شمال أفريقيا داخل الإمبراطورية بشبكة طرق بحرية وأساطيل تجارية وحربية في حركة مستمرة.

قسّمت بيزنطة مدن الساحل الجنوبي للحوض إلى ولايات عسكرية يحكم كل ولاية أو إقليم دوقس مثل قرطاجة وسوسة وطرابلس وبرقة والاسكندرية على امتداد هذه السواحل، وكانت أفريقية البيزنطية تبدأ من حدود مصر تضم برقة وطرابلس وتونس وجبال الأوراس إلى طنجة وسبته،⁽³⁾ وكان لابد لهم من حراسة البلاد حتى يتيسر لهم الاحتفاظ بها، فاتجهت الامبرطورية إلى إقامة الحاميات والحصون والأسوار من جهة البحر.⁽⁴⁾

تمتعت ليبيا بساحل طويل جنوب البحر المتوسط، وانتشرت عليه المدن العامرة كبرقة وسرت وطرابلس وكان القرن الأول الهجري، السابع الميلادي بداية مرحلة تحول كبرى في تاريخ المسلمين من النواحي الاقتصادية والسياسية والحضارية، فقد نجح المسلمون في فتح هذه المدن الساحلية الليبية بعد فتح الاسكندرية وارغموا بيزنطة على التراجع إلى السواحل الشمالية لحوض المتوسط وجزيرة صقلية "وجعلت من هذه الجزيرة مركزاً لحماية أملاكهم في إيطاليا وبعض الجزر"،⁽⁵⁾ وبذلك ظلت بيزنطة تقاسم العرب أجزاء كبيرة من حوض المتوسط وحتى فترة متأخرة من العصر الوسيط.⁽⁶⁾

تطور التحصينات في برقة والمدن الساحلية شرق ليبيا

الأسوار:

(برقة) كانت تسمى أنطابلس وبعد فتح العرب لها سموها برقة لكثرة حجارتها المختلطة بالرمل وهي قاعدة البلاد ويقال لها اليوم المرج،⁽⁷⁾ تقع بين مصر وأفريقية،⁽⁸⁾ وهي أول حد بلاد أفريقية والمغرب فكانت حاضرة لتلك البلاد ومجتمعاً لأهلها افتتحها عمرو بن العاص سنة 22هـ في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ومنها كان ابتداء فتح المغرب والمسافة من هذه المدينة انطابلس الى طرابلس المغرب قريب من خمس وعشرين مرحلة.⁽⁹⁾ ولهذه المدينة ساحل ترسو فيه المراكب يقال له اجب،⁽¹⁰⁾ ذكر الإدريسي أنّ برقة مدينة متوسطة المقدار، وهي أول

منبر يقصده القادم من جهة المشرق من مصر إلى القيروان،⁽¹¹⁾ وذكر أنها مدينة برية بحرية ذات بقعة فسيحة لها مرسى تتجهز منه المراكب والمسافرون الواصلون من الإسكندرية بالصوف والأمتعة والعسل والزيت والكبريت الذي يخرج من أرضها.⁽¹²⁾ وعندما فتحها المسلمون لم تذكر المصادر أنها كانت مدينة محصنة أو صعب على الجيوش الفاتحة دخولها أو محاصرتها ممّا يشير إلى أنّ مدينة برقة عشية الفتح لم تكن بها استحکامات حربية متينة، والمسلمون هدموا أسوار مدن برقة البرية منعاً من ارتداد أهلها ومحاربة المسلمين من وراء الأسوار ومنعاً من عودة الروم إليها،⁽¹³⁾ وبالتأكيد أنّ هذه الأسوار لم تكن متينة إذ بنيت على عجل، فكانت أفريقية البيزنطية ضعيفة من الناحية الحربية،⁽¹⁴⁾ وكانت هذه الأسوار والحصون في أغلب مدن سواحل أفريقية البيزنطية توجد من ناحية البر فقط بينما من جهة البحر كانت المدن غير مسورة مفتوحة على الضفة الشمالية للمتوسط لربطها بحرياً بالضفة الشمالية التي تسيطر عليها بيزنطة، فبخصوص السور فقد أمر الخليفة العباسي المتوكل ببناء الأسوار على مدينة برقة،⁽¹⁵⁾ لزيادة تحصينها وحمايتها من أخطار الفرنجة وشهدت المدينة ازدهار كبير في منشأتها الحربية.

بعد الفتح الإسلامي لبرقة ومناطق السواحل التي عرفت بكاملها بوجود مراسي للسفن التجارية والحربية وقد تطورت الاستحکامات الدفاعية والعمارة العسكرية على سواحل مدن برقة، وبخاصة في العهد الأغربي، حتى وإن كانت فكرة تحصين المدن فكرة قديمة انطلاقاً من أهمية الأمن والأمان فيعتبر السور من المعايير الحضارية التي تميز المدن، واعتبر الإسلام "بناء الأبراج والأسوار والقلاع والحصون من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض وهو من مقاصد الإسلام، ولقد حثّ الدين الإسلامي المسلمين على القوة والاستعداد لمواجهة الأعداء".⁽¹⁶⁾

المحارس والاربطة:

شهد البحر الأبيض صراعاً حريباً بحرياً فعمد المسلمون في شمال أفريقيا إلى تحصين مدنها من خطر النصارى الموجّه للساحل الجنوبي لحوض البحر المتوسط فشيّدوا تحصينات دفاعية وربطوا بها فكانت صمام أمان للمدن والأراضي الداخلية، وتوسع الأغلبة في بناء الرباطات التي سمّيت بالمحارس، فانتشرت على ساحل البحر من الإسكندرية إلى المحيط، تذكر المصادر أنّ إبراهيم بن أحمد بن الأغلب أخو أبي الغرائق المحارس على طول سواحل البحر المتوسط حتى كانت النار توقد في ساحل سبته للندير فيتصل بإقادها إلى الإسكندرية في الليلة الواحدة،⁽¹⁷⁾ وأنّ محمد بن الأغلب بنى محارس على طول ساحل أفريقيا على مسيرة خمسة عشر يوماً من برقة إلى جهة الغرب،⁽¹⁸⁾ وذلك لحماية مدن الساحل من هجمات الروم البيزنطيين بعد فتح ابناء الأغلب لصقلية ومالطا في البحر، وكان المسلمون يتسابقون إليها، ويرون فيها نوعاً من أنواع الجهاد والدفاع عن الإسلام فكانوا يقومون بحراسة المدن والقلاع والحصون وأبواب المدن حتى لم تستطع الأساطيل البيزنطية في القرنين الثاني والثالث للهجرة من أن تتال من الساحل الإفريقي لأنّ المحارس والرباطات كانت بالمرصاد، والمحارس كانت منتشرة على طول الساحل الليبي؛ لنقل الأخبار والإنذار عن أي أخطار ولها أسلوب التخاطب مع غيرها ومع الناس عن طريق الإشارات وإشعال النار ودق الطبول عند الحاجة لمجابهة المخاطر،⁽¹⁹⁾ حيث تبعد كل قلعة أو محرس عن الآخر بمسافة 20 إلى 40 كم، وهذه المحارس منتشرة على طول لساحل الليبي لنقل الأخبار والإنذار،⁽²⁰⁾ يذكر المراكشي كان بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصون متقاربة جداً فإذا ظهر في البحر عدو نور كل حصن للحصن الذي يليه، واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس إلى الإسكندرية أو من الإسكندرية إلى طرابلس في ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم،⁽²¹⁾ وهذه الرباطات والمحارس

تحميها حاميات من المسلمين كانوا يرابطون بها أثناء قيامهم بالواجب فيها لا ينفكون عن التطلع للبحر يراقبون أي إنذار أو خطر بالبحر قادم للمدن فكان الربط مركز مراقبة أكثر منه مركز دفاع والمقيمين في هذه الأريطة أميل إلى العزلة والعبادة ومن ثم أصبحت تلك الرباطات معاهد ومراكز تعليمية تربية دينية، وهكذا نجد أن عهد بني الأغلب شهد قيام الرباطات لحماية السواحل الإسلامية كمركز من المراكز الثقافية بجانب المسجد،⁽²²⁾ وبهذا التطور للمحارس أصبح من بالإسكندرية يعلم بهجوم رومي بيزنطي بأقصى الساحل غرباً خلال ساعات، والعكس حيث يعلم من بسبته بأخطار وإنذار عن هجوم رومي بيزنطي على سواحل برقة والإسكندرية نتيجة تطور هذه المحارس.

يتوقف خط هذا الاتصال الذي يربط سبته بالإسكندرية بالمحارس عندما تتعرض مدينة للاحتلال من قبل العدو فالإشارة تنقطع بين هذه المحارس على طول الخط الدفاعي البحري ممّا يمكّن النصارى من باقي المدن، وإن سكنت المصادر عن بعض الأمور المهمة التي تتعلّق بتلك المحارس الخاصة بالمدن على الساحل الليبي إلا أنّها في مواضع أخرى كشفت عن أهميتها عندما تطرقت للحديث عن تاريخ أفريقية والقيروان ومناطق أخرى بالمغرب الأدنى فنستدل بها لقراءة تاريخ ليبيا، ومدنها وسواحلها وحامياتها، فقد ذكر المالكي في رياض النفوس "وكان أبا الفضل يوسف بن مسرور كثير الحرس على المسلمين فلقد ذكر أنّه قال كنت بسوسة فجاءت مخاوف من العدو ومشت مراكبه في البحر فأخذ الوالي أهل سوسة أصحاب النوالات (الأسواق) وغيرهم بالحرس نوبا، وكان المرابطون في ذلك الوقت قلّة، ولما سمع الناس أقبلوا مستعدين حارسين على ذراري المسلمين، يقول: وبينما كنت أحرس ذات ليلة وقد علوت في المحارس سمعت صبية تقول لأمها: يا أماه قد جاء المرابطون يحرسون علينا قومي بنا نرقد فأعجبنى ما سمعت منها،⁽²³⁾ وهذا مؤشر على الدور الرئيسي الذي كانت تقوم به تلك الحاميات والمحارس

من تقديم الحماية والرعاية للرعية والمسلمين، وذكر المالكي أيضاً سكن جبلة بن حمود بن عبدالرحمن بالقيروان بعد دخول الشيعي أبو عبدالله سنة 297هـ فسألوه كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترابط فتركت الرباط والحرس ورجعت إلى هنا؟ فقال: كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر فتركناه واقلنا على حراسة هذا الذي حلّ بساحتنا؛ لأنه أشد علينا من الروم،⁽²⁴⁾ وهذا أيضاً مؤثر على أن المحارس كانت مهامها الأساسية حراسة المدن من جهة البحر خوفاً من قدوم الروم على حين غفلة، فيستعدوا لهم، كذلك نلاحظ في هذه الرواية أن المسلمين نتيجة الفتن والانقسام تضعف قوتهم مما يتيح المجال لعدوهم لغزوهم من جهة البحر بعد نزول صاحب المحرس والمرابطين للعدو من جهة اليابسة.

تختار مواقع هذه المحارس في أماكن مناسبة على الساحل سواء كانت السنة ممتدة في البحر، أو ربوات مرتفعة على الساحل، أو قلاع مبنية على الساحل سواء كانت في الأصل بيزنطية أو بناها المسلمون بعد الفتح كقلعة ظلميته بالقرب من برقة التي تقع على البحر ولها حصونها وأسوارها،⁽²⁵⁾ وبالقرب من برقة حصن يسمّى ظلميته بالقرب منه معدن كبريت،⁽²⁶⁾ بذلك كانت المحارس في مدن برقة مناطق مختارة على السواحل تتميز بالرؤية، بحيث أن المحارس تتمكّن منها رؤية المحرسين الشرقي والغربي للمحرس، ناهيك عن الرؤية باتجاه البحر مصدر الخطر البيزنطي والإفرنجي والإسباني، لذلك كانت المحارس مهمة في تلك العصور وقد أخذت شهرتها فكانت وسيلة الاتصال والحماية.⁽²⁷⁾ ويشير إخوان بيتشي إلى وجود آثار لمباني مربعة تشبه القلاع على سواحل ليبيا من قصور حسان حتى مدينة درنة شرقاً وخاصة في منطقة المدن الخمس ببرقة فُسرت بأنها محارس بنيت في العهد الأغلبي.⁽²⁸⁾

المراسي:

كان وجود المراسي على مدن السواحل الجنوبية للمتوسط أمراً حتمياً سواء للتجارة أو للدفاع وقد تمتعت مدن برقة بمراسي تختلف من حيث الأهمية فالتجارية تقلع وتصل إليها المراكب من جميع الاتجاهات والحربية للأساطيل البحرية التي تحمي هذه السواحل وتدافع عن المدن، ذكر ابن سباهي لبرقة مرسى يقال له اجب وفيها عدة محارس على ستة أميال من برقة وساحل آخر يقال له ظلميته،⁽²⁹⁾ وذكر المنصوري أن برقة بها مراسي عدة تدخلها المراكب منها مركب ابن غازي،⁽³⁰⁾ وذكر الرحالة العرب خلال العصور الإسلامية كابن سعيد الذي عاش في القرن السابع الهجري، لطبرق مرسى قل أن يكون له نظير على هذا البحر فما للرياح عليه سبيل كأنه حوض منقور في حجر وبقايا اسوار هذه المدينة تدل على قدمها،⁽³¹⁾ وأشار القلصادي في رحلته إلى وجود مرسى ببرقة بقوله: وصلنا إلى مرسى العمارة ببرقة من الإسكندرية.⁽³²⁾

وعدد العمري مراسي السواحل الليبية التي تعد مدخل كل مدينة على ساحل المتوسط بقوله: استقام البحر مشرقاً من طرابلس وهي نهاية قواعد مدن أفريقية ثم خرج البحر إلى جون كبير أول ما عليه جزيرة العافية ثم قصر أحمد في مصراته،⁽³³⁾ وأحمد هو (ابو شعيفة) (الصحابي الذي شهد اليرموك أبو سجييف بن قيس بن الحارث بن العباس) وهو مرسى لمدينة مصراته على السواحل الليبية عبارة عن نوع من المحارس في القرن الأول الهجري حيث يقع على شاطئ البحر في منطقة مرتفعة وكان بجانبه قلعة قديمة لعلها كانت آثار لنقطة المراقبة وبذلك تعد أول نقطة مراقبة ورياط إسلامي ومحرس متقدم لقصور حسان التي تقع خلف هذه المدينة لأخطار حسان باى تحرك بحري من قبل الروم وبقي فيه هذا الصحابي إلى أن توفى ودفن فيه وحفوظ على ضريحه لذكراه،⁽³⁴⁾ ويعتبر بداية انتشار المحارس على السواحل الغربية للبحر المتوسط مع بداية الفتوحات الإسلامية، ثم صبح وهو مرسى لا احتفال به ثم نمارس ثم جزيرة الطير ثم زنارة

ثم نميرة ثم القمرة ثم مرسى عطية ثم كريكرة ثم كركورة ثم ملال وهو يعرف بمرسى ابن غازي ثم يليه رسق وهو قصر لخزين الحرب ثم ظلميته ثم قصر خزين ثم كسنت ثم جون دفرنة ثم اوبان ثم سوسة وهي أرض بها قصر جليل ثم الهلال ثم كرشة، وهي مرسى فيها قصر جليل ثم درنة ثم شقة الفلفل ثم الفوارة وهي فيها مرسلاً ثم مرسى التين، وهو راس جون ثم لتين وهو مرسى مليح مأمون ليس في بر المسلمين مثله لأنّه لا يكشف بريح من الرياح ثم لينة ثم الرصيص ثم طبرق،⁽³⁵⁾ ودرنة مدينة على ساحل البحر بها مراسي ومرسى هذه المدينة عجيب تنزل فيه السفن الواردة من الإسكندرية وطرابلس ومن بر الروم، ولا سيما جزيرة كندية التي بينها وبين درنة مسافة يوم في البحر لأنّها مقابلتها.⁽³⁶⁾

كانت هذه المراسي مرافئ طبيعية حيث تلجأ إليها السفن للاحتماء من تقلبات الأجواء ثم تطورات وأصبحت مراسي ذات أرصفة بحرية مزوّدة بحواجز للأمواج المبنية بالأحجار كان الدافع من إنشائها هو التوسع في التجارة البحرية مع وجود الصراعات الحربية في حوض المتوسط.⁽³⁷⁾

من المدن الساحلية الليبية المطلة على السواحل الجنوبية لحوض المتوسط مدينة سرت، وهي بلد على البحر،⁽³⁸⁾ تردها المراكب بمتاجر،⁽³⁹⁾ فتحها عمرو بن العاص، ولم يجد عناء في فتحها ولم تذكر المصادر أنّها فتحت عنوة، أو صلحاً فيبدو أنّها كانت ذات تحصينات برية ضعيفة، وذكر ابن حوقل الذي عاش في القرن الثالث الهجري أنّ سرت ذات سور صالح كالمنيع،⁽⁴⁰⁾ وذكر البكري أنّ سرت مدينة كبيرة على البحر عليها سور طوب لها ثلاثة أبواب احداها باب صغير على البحر،⁽⁴¹⁾ فهذه الاستحكامات الدفاعية وخاصة الباب الذي على البحر تشير إلى أنّها شيدت بعد الفتح الإسلامي لحمايتها من جهة البحر من غزوات الإفرنج وغيرهم. وتحديداً في القرن الثالث الهجري عندما قام أبناء الأغلب بتحسين كل المدن الليبية، ومن

المحارس التي وجدت آثارها في سرت قلعة سرت التي كانت وظيفتها المراقبة لحماية المدينة والاستخبارات.

تطور التحصينات في طرابلس والمدن الساحلية غرب ليبيا

الأسوار وأبوابها:

نشأت مدينة طرابلس القديمة على هضبة باب البحر في منتصف ساحل سهل الجفارة غرب ليبيا، والذي يعد من أهم السهول الساحلية في ليبيا،⁽⁴²⁾ وطرابلس مدينة قديمة أنشأها الفينيقيون على هضبة مقابلة للبحر،⁽⁴³⁾ تسمى هضبة باب البحر محاطة بمياه البحر من جهتي الشمال الشرقي التي تمثل جزءاً من الميناء والشمال الغربي، ويفصل بين المدينة وأول جزر الميناء وأكبرها، ممر مائي يعرف بعين الإبرة،⁽⁴⁴⁾ ودائماً يراعى في البلدان الساحلية عند المسلمين أن تكون على جبل،⁽⁴⁵⁾ ولكن طرابلس ورثها المسلمون من الدولة البيزنطية سنة 23هـ بعد فتحها عنوة على يد الصحابي عمرو بن العاص الذي حاصرها لمدة شهر من جهة البر ثم دخل إليها من جهة البحر،⁽⁴⁶⁾ فهذه المدينة أيضاً محمية بسور من جهة البر، بينما لم يكن بينها وبين البحر سور فكانت سفنهم شارعة في مرساها بجانب بيوتهم،⁽⁴⁷⁾ وهذا التحصين الضعيف سبق وأن أشرنا إليه بالنسبة لمدن برقة والبيزنطيين سوروا المدن من جهة اليابسة منعا لأي هجوم من قبل الأهالي عليهم بينما تركوها بدون سور من جهة البحر للتواصل فيما بينهم من جهة البحر مع الضفة الشمالية للحوض، فتم فتحها من تلك الجهة البحرية، وبدورهم المسلمون عمدوا إلى تطوير الدفاعات وتجديد الأسوار للدفاع عنها ولحماية سكانها من الإفرنج.

يذكر أن عمرو بن العاص هدم هذا السور سنة 23هـ مثل ما قام به المسلمون في مدن برقة؛ لكي لا يحتمى فيها النصارى، وجدد بناء هذا السور في طرابلس عبدالرحمن بن حبيب الفهري المتغلب على أفريقية نهاية العهد الأموي وتأخر بناؤه مما يلي البحر إلى ولاية هرثمة بن

أعين على افريقيا سنة 180هـ،⁽⁴⁸⁾ فهو الذي ابتناه على يد ثقته زكريا بن قادم، ثم زاد في إتقانه ورفع بنائه من جهة البحر والبر أبو الفتح زيان الصقلي متولى طرابلس سنة 345هـ⁽⁴⁹⁾ من قبل الفاطميين، وكان من الضروري بناء الأسوار من جهة البحر بعد تفاقم الخطر البيزنطي في حوض المتوسط والاهتمام بالاستحكامات الدفاعية حول المدن الإسلامية لحمايتها، وبفضل تلك التحصينات ساد الهدوء لفترات في حوض المتوسط.⁽⁵⁰⁾

استمر المسلمون في بناء التحصينات على المدن الإسلامية على الضفة الجنوبية للمتوسط ومن خلال وصف الرحالة نصل إلى مدى اهتمامهم بذلك فيصف البكري الذي عاش في القرن الخامس الهجري سور طرابلس بقوله: "يوجد على مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان"،⁽⁵¹⁾ والبحر يضرب في سورها، وسورها من حجر جليل من صنعة الأولين،⁽⁵²⁾ وأشار التيجاني إلى تطور نظام التحصين في طرابلس في القرن السابع الهجري وذكر أنه تحصين من نوع جديد لم يكن في القديم، وهو إحاطة سور طرابلس بسور آخر أقصر منه يسمى الستارة أمر ببنائه الشيخ الحفصي أبو محمد عبدالواحد سنة 614هـ واكمل بناؤه من جهة البحر أيام مقام التيجاني بطرابلس.⁽⁵³⁾

كان التيجاني الذي عاش في القرن السابع الهجري شاهداً على إنشاء بعض التحصينات بطرابلس فيذكر ورأيت بسورها من الاعتناء واحتفال البناء ما لم أره لمدينة سواها وسبب ذلك أن لأهلها حظاً من مجباها يصرفونه في ترميم سورها وما تحتاج إليه من مهم أمورها فهم لازالوا أبداً يجددون البناء فيه ورأيتهم شرعوا في حفر خندق متسع يرومون أن يصلوه بالبحر من كلا جانبي البلد،⁽⁵⁴⁾ وهذا الترميم للأسوار في مدينة طرابلس يعكس أهمية الدور الذي تطلع به هذه المدينة في النشاط البحري،⁽⁵⁵⁾ كذلك يعكس اطماع الفرنجة المستمرة لهذه المدينة الساحلية التي تتمتع بموقع استراتيجي تجاري فاهتم ولاة الدولة العباسية والفاطمية بأسوارها

لحمايتها من الأطماع الخارجية خاصة من جهة البحر، ويذكر أيضاً أنّ سور طرابلس به أبواب كثيرة منها باب البحر الذي بخارجه منظر من أنزه المناظر مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة،⁽⁵⁶⁾ وعليه قبة وصفها العبدري^(*) "قبة باب البحر من بناء الأوائل في غاية الاتقان ونهاية الأحكام مبنية من صخور منحوتة منقوشة مرصوفة بأعجب الرصف"،⁽⁵⁷⁾ وطرابلس لها باب من البر وباب من البحر لأنّ البحر محيط بكثير من جهاتها.

الأبراج:

تميزت تلك الأسوار بوجود الأبراج القريبة من الأبواب، وهي عبارة عن بناء مرتفع في سور المدينة أو الحصن وبعد أحد عناصر الدفاع الأساسية في الاستحكامات الحربية وتأخذ الأبراج في ليبيا شكل مربع ينتهي بغرفة يصعد منها للسطح للمراقبة، وسور طرابلس محاط بستة أبراج. وتبنى الأبراج كذلك منفصلة عن الأسوار والحصون وعادة على المرتفعات بالمناطق الثغرية المقابلة للبحر أو داخل مياه البحار على السواحل مثل التي وجدت في مدينة لبدّة بالقرب من طرابلس أبراج مبنية بالحجر المنحوت ترى أعمدة الرخام واقفة في وسط البحر قد أحاط بها الماء.⁽⁵⁸⁾

المراسي:

ظهرت البحرية الإسلامية بشكل واضح في حوض المتوسط في عهد الأغالبة والفاطميين بين (القرن الثاني والسادس الهجري) الذين شكلوا خطراً على بيزنطة عندما استطاعوا إنشاء مراكز لصناعة السفن والمراكب على هذه المدن الساحلية.

تمتلك طرابلس ميناء جيد، ولها إمكانيات لبناء السفن،⁽⁵⁹⁾ وتشير بعض الآثار إلى وجود حوض لبناء السفن وصيانتها في الطرف الشمالي للخنق الذي يحيط بقلعة طرابلس،⁽⁶⁰⁾ ويصف التيجاني الميناء بقوله: وهو مرسى حسن ومتسع تقرب المراكب فيه من البر وتصطف هناك

اصطفاف الجياد في أواربها،⁽⁶¹⁾ فلقد حاول المسلمون الأوائل تكوين أساطيل بحرية للدفاع واستخدامها في الفتوحات عندما اتجهت أنظارهم إلى جزر المتوسط لبسط الوية الإسلام ومنها إلى أوروبا، وتكون هذا الأسطول بين صناعة المسلمين للسفن والمراكب وبين اغتنام المراكب من الروم، فعندما وصل عبدالله بن السرح إلى طرابلس أخذ يوصى أصحابه ويحذرهم من الروم إذا ثم مراكب قد ارست فشدوا عليهم، ووصلت السفن البيزنطية فاسروا من بها وقتلهم ابن أبي السرح وأخذ ما في السفن من سلاح وعتاد فكانت أول غنيمة للمسلمين،⁽⁶²⁾ وتحصن أهل طرابلس ولم يعرضوا لنا ولم نهجمهم،⁽⁶³⁾ هذا مؤثر على أن طرابلس كانت تتمتع بتحصينات كبيرة وأن الروم اتخذوا من مرساها البحري موقعاً لمحاربة المسلمين على الضفة الجنوبية للبحر، ولكن ابن أبي السرح كان يتوقع الهجمة البحرية البيزنطية فتصدى لها وضم السفن إلى الأسطول البحري الإسلامي،⁽⁶⁴⁾ يذكر العياشي في طرابلس مراكب قل نظيرها معدة للجهاد في البحر قلما تسافر وترجع من غير غنيمة، وقلما أسرت لهم سفينة إلا من سفن التجارة لا من سفن الجهاد،⁽⁶⁵⁾ ويضيف "صادف يوم خروجنا من طرابلس خروج سفن من مرسى طرابلس للجهاد تتكون من ست سفن بها الفي مقاتل خرجت مجتمعة"،⁽⁶⁶⁾ وهكذا ساهمت طرابلس خلال العصور الاسلامية بإمكانياتها البحرية في فتح صقلية ومالطا وجزر المتوسط بهذه الأساطيل،⁽⁶⁷⁾ يذكر ارشيبالد بنى المعز بن باديس الزيري قوة بحرية في افريقيا لينافس بها منافسيه في طرابلس الغرب،⁽⁶⁸⁾ ممّا يشير إلى قوة البحرية الليبية في طرابلس في تلك الفترة.

أمّا عن الموضع الذي نشأ عليه ميناء طرابلس، فهو عبارة عن لسان صخري يمتد في اتجاه شمالي شرقي جنوبي غر، عبارة عن جبل خارج في البحر إذا عدته المراكب استبشرت بالسلامة،⁽⁶⁹⁾ وهذا اللسان تقطع إلى مجموعة من الجزر المتجاورة بفعل عوامل التعرية المختلف وقد شكلت بتجاورها خليجاً مفتوحاً باتجاه الشرق، وهذه ساهمت في حماية الميناء من أثر

الأمواج والتيارات البحرية من جهة الشمال والشمال الغربي، حيث أقيمت الأرصفة قديماً على الساحل الجنوبي لهذه الجزر،⁽⁷⁰⁾ بذلك من الصعب إرساء المراكب الغازية فيه بسهولة أمّا المراكب التجارية فيبادر أهل البلد بقواربهم ومراكبهم وحبالهم متطوعين فيقيد المركب ويرسي به بغير كلفة لأحد ولا غرامة،⁽⁷¹⁾ ويرى البكري أنّ مرساها مأمون من أكثر الرياح،⁽⁷²⁾ كما يوجد ميناء لبدة شرق طرابلس كان من أعظم الموانئ في العصور الرومانية من حيث العمارة والمنشأة الحربية بنى فيه أرصفة بحرية عملاقة وأقيمت المخازن وحواجز الامواج والفنار وغيرها من عناصر العمارة البحرية.⁽⁷³⁾

المحارس والأرصفة:

من التحصينات الدفاعية في مدينة طرابلس بناء الأغلبة لمسجد عبدالله الشعاب بمدينة طرابلس والذي كان محرساً للمدينة سنة 243هـ،⁽⁷⁴⁾ وأيضاً يوجد على هضبة باب البحر المشهورة بالارتفاع على شاطئ البحر محارس بها اضرحة انشأت عليها عدة قلاع منها قلعة سيدي الهدار التي أسست عليها الأبراج⁽⁷⁵⁾ مهمتها بالإضافة للمراقبة توقد فيها النار فكان يرى من أهل مدينة ترهونة التي تقع جنوب طرابلس،⁽⁷⁶⁾ وبخارج البلد محارس قديمة،⁽⁷⁷⁾ وبتاجوراء قصر بوسطه حصن أقدم منه بناءً ابتناه حميد بن جارية في القرن السادس الهجري،⁽⁷⁸⁾ وإلى الغرب من طرابلس عند مدينة زوارة حصن بموضع بتليل في باب تل مشرف على البحر،⁽⁷⁹⁾ وبمدينة صبرة كانت قاعدة بالقديم ولم يكن هناك أحصن منها⁽⁸⁰⁾ إذا وجد الفاتحون عليها سور يحصنها به أبواب، ويزنور قبر الشيخ عبدالجليل الحكيمي عبارة عن مسجد قديم على البحر، كان من المحارس المفرطة الحصانة،⁽⁸¹⁾ وتوجد مباني ومساجد كثيرة بمحاذاة الساحل غرب طرابلس ضريح سيدي بلال، ثم يليه ضريح سيدي بوحميده على ربوة تشرف على البحر بالماية وتستمر الأضرحة على طول الشواطئ الليبية كضريح أبي كماش ونلاحظ ضريح موجود على ربوة وقد

جدد بناؤه مؤخراً، هو ضريح سيدي بوسعيد وهو آخر موقع أو ضريح بالأراضي الليبية من جهة الغرب. (82)

أمّا شرق سيدي الشعاب فموضع سيدي محمد الأندلسي بتاجوراء وهو على ربوة تشرف على البحر ثم يليه ضريح سيدي بالنور والموضع يشير إلى أنّه محرس لأنه فضاء يشرف على البحر وبه ربوة وتتوالى الأضرحة على طول شاطئ ليبيا من جهة الشرق إلى منطقة النقازة كما يوجد على تلة المرقب المرتفعة محرس، وقد تسمت التلة بالمرقب، وهو أسم مرادف لمحرس وتشرف هذه التلة على البحر، وعلى الشرق منها على ربوة مرتفعة يوجد ضريح مشهور باسم سيدي مفتاح على شاطئ البحر، ولا شك أنه موقع يخص ضريح،⁽⁸³⁾ وتستمر الأضرحة على الشواطئ كضريح بورقية الموجود بزليتن، ويعنى الاسم أنه يصعد الى الربوة ويقع على أعلى مرتفع بالمنطقة،⁽⁸⁴⁾ والأضرحة كثيرة بين بورقية وقصر حمد بمصراته.⁽⁸⁵⁾

تميزت هذه المحارس بأنّها تجمع بين العبادة والاحتراس فكان المرابطون بها أثناء قيامهم بالواجب فيها لا ينفكون عن التطلع للبحر يراقبون أي إنذار أو خطر بالبحر قادم للمدن والمخابرة بين المدن، والتي كانت تتم بالإشارات النارية، فكل المساجد القديمة على سواحل البحر كانت مساجد ومحارس.⁽⁸⁶⁾ وهكذا كانت المحارس رباطات للمراقبة أكثر منها للدفاع والمقيمين في هذه الأريطة أميل إلى العزلة والعبادة، ومن ثم أصبحت تلك الرباطات معاهد ومراكز تعليمية تربوية دينية، وهكذا نجد أنّ عهد بني الاغلب شهد قيام الرباطات لحماية السواحل الإسلامية كمركز من المراكز الثقافية بجانب المسجد،⁽⁸⁷⁾ ومن الملاحظ أنّ أغلب مباني ابن الأغلب مبنية المحارس من الإسكندرية إلى سبته،⁽⁸⁸⁾ عبارة عن أضرحة وأبراج على ربوة بحرية، أو لسان أو منطقة مرتفعة على محاذاة الساحل مؤشر على أنّ الموقع كان محرساً للمدينة، وهكذا كانت المحارس مهمة في تلك العصور، وقد أخذت شهرتها فكانت وسيلة الاتصال والحماية.⁽⁸⁹⁾

القلع والحصون:

القلعة استحكام حربي يشتهر بأسواره العالية وأبراجه الضخمة، ويبنى في منطقة استراتيجية على الجبل أو التل أو على سواحل البحار مهمة هذه الاستحكامات تقتصر أيضاً على المراقبة والدفاع ضد اي اعتداء خارجي، والقلعة تحتوي على جميع المرافق الخدمية للجند من اسطبلات ومخازن ومقرات وأبراج، يذكر البكري يوجد ببلدة، وهي مدينة غرب طرابلس حصن مبنى بالصاروج والحجر يسكنه قوم من العرب جملتهم نحو ألف فارس، وهم محاربون وهم أزيد من الفين بين راجل وفارس،⁽⁹⁰⁾ ممّا يشير إلى أنّ تلك الحصون والقلع يوجد بها مواقع خدمية للجند من إقامة وعناية بخيولهم في اسطبلات خاصة مع تلك المخازن للسلاح والعتاد. وقلعة طرابلس التي كانت موجودة عشية الفتح الاسلامي، وفي الأصل هي حصناً رومانياً وموقعها فوق ربوة صخرية ترتفع عن مستوى سطح البحر،⁽⁹¹⁾ وتحولت إلى قصر في العهد العباسي، وأصبح هذا القصر رباطاً للجند في المدينة سنة 180هـ، وهو مرادفاً لرباط سوسة بأفريقية من حيث الأهمية والموقع⁽⁹²⁾ ثم تحول إلى قصبة سنة 717هـ بناه في العصر الحفصي زكريا بن أحمد الليحاني، وعرف باسم الطارمة تحت السور القبلي ممّا يلي البحر، واستمر كقلعة لمدة سبع قرون،⁽⁹³⁾ مستمرة في دورها في حماية المدن الإسلامية خاصة مدن ليبيا الساحلية التي لم تخل من هذه التحصينات الهامة.

كانت الاسلحة المستخدمة خلف الاسوار وفي القلعة والحصن المواجه للبحر الاسلحة التقليدية الرمح والسهم والمنجنيق لقذف كور اللهب والحجارة بواسطة الجند المنتشرين على شرفات الأسوار والأبراج والقلع⁽⁹⁴⁾ وبعد ظهور البارود كنوع جديد من الأسلحة النارية سواء في شكل مدافع للدفاع أو الهجوم استوجب تعديل القلاع بما يكفل مقاومة تأثير هذا السلاح سواء من أضراره أو تحمل ردد فعل استخدامها من داخل القلعة، الأمر الذي استوجب زيادة سماكة

الجدران وقوتها، وتحولت واجهات المدن البحرية إلى حصون تتصبب بها المدافع لمواجهة الأعداء وللحيلولة دون وصول بارود العدو للمدينة ومنذ دخول الأسبان إلى طرابلس دخل معهم هذا السلاح الجديد المدافع كآلة حربية.⁽⁹⁵⁾

هكذا قام ولاية وأهالي المدن المفتوحة بسواحل البحر المتوسط الجنوبية بإجراءات دفاعية لإحكام السيطرة على مدنهم من الإسكندرية شرقاً إلى سبته غرباً، ونجد أن المدن الليبية الساحلية تمتعت بمنظومة دفاعية قوية قائمة على الحصون والأبراج والأسوار والخنادق والقلاع مهمتها الإنذار بالخطر؛ حتى يتمكن الجند النظاميون من المدافعة وصد الهجمات عن المدينة مبكراً.

ثانياً: تصدي الليبيين في طرابلس وبرقة لغارات الرومان والإفرنج والأسبان ونتائجها وأسباب نجاح دفاعاتهم وأسباب إخفاقها.

هجوم الروم على برقة من جهة البحر في القرن الأول الهجري:

كان زهير بن قيس البلوي^(*) قائد للجيش الإسلامية خرج فاتحاً لبلاد المغرب الأدنى ومحاربة الروم⁽⁹⁶⁾ أقبل إلى إفريقية في جيش عظيم سنة 69هـ،⁽⁹⁷⁾ خلفاً للوالي أبي المهاجر دينار، أقام زهير في برقة مرابطاً، ولما ولّى عبدالملك بن مروان بعث إلى زهير بمكانه من برقة بالمدد فزحف إلى إفريقية ودارت معارك نواحي القيروان بينه وبين الروم بقيادة كسيلة،⁽⁹⁸⁾ وبعد انتصاره عليهم رأى زهير بإفريقية رفاهة العيش وملكاً عظيماً فأبى المقام فيه وقال: إنما قدمت للجهاد ولم أقدم لحب الدنيا فأراده رؤساء أصحابه المقام فأبى ورجع إلى المشرق ونزل ببرقة،⁽⁹⁹⁾ فبلغ الروم خروجه من أفريقية إلى برقة فامكنهم ما يريدون فخرجوا إلي برقة من جزيرة صقلية في أساطيل بحرية ومراكب كثيرة وقوة عظيمة فأغاروا على برقة فأصابوا فيها سبباً كثيراً وقتلوا ونهبوا،⁽¹⁰⁰⁾ وكان هذا الغزو في وقت مبكر لم يتمكن فيه المسلمون بعد من بناء التحصينات حول المدينة حيث كانت مدينة برقة بدون سور من جهة البحر، والسور الذي كان من جهة البر

أمر عمرو بن العاص بهدمه، لذلك كانت المدينة عرضة للغزو والنهب فلم يكن هناك حاجز دفاعي يمنع الروم من هذا الهجوم وإرساء مراكبهم في مرسى المدينة. وافق ذلك قدوم زهير إلى برقة فأخبر بخبرهم فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل طمعاً في أن يدرك سبي المسلمين فيستتقدمهم فأشرف على الروم إذ هم في خلق عظيم فلم يقدر على الرجوع،⁽¹⁰¹⁾ كذلك لم تكن المعركة متكافئة فأعداد الروم كانت أضعاف أعداد جيوشه التي لا يتجاوز السبعين رجلاً،⁽¹⁰²⁾ وقد سبقه الروم للمدينة، وزهير لم يسعفه الوقت لطلب الإمدادات من المركز في مصر، خاصة وأنه قد استغاث به المسلمون من أهل برقة عندما كان الروم يدخلونهم إلى المراكب، فالموقف لا يستدعي الانتظار، ولم يكن يملك من السلاح إلا السلاح التقليدي السيف والفرس، لإفشال هذا الهجوم كان يحتاج إلى مجانيق تقذف على المراكب الحجارة لتغرقها أو تقذف عليها كور النار لتحرقها، ولكنها سبت وقتلت ونهبت واستعدت للرحيل، ولا يوجد سلاح يواجهها، نادى زهير بأصحابه النزول فنزلوا فكانوا أشرف العابدين ورؤساء العرب المجاهدين أكثرهم من التابعين فنزل الروم اليهم، وتلقوهم وتكاثروا عليهم فاستشهد زهير سنة 73 هـ ومعه أشرف من كان معه من العرب،⁽¹⁰³⁾ وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية.⁽¹⁰⁴⁾

يرى أحد المستشرقين أن سبب عودة زهير من أفريقية إلى برقة هو بسبب النشاط البحري البيزنطي في البحر المتوسط، فسمع بالحملة البحرية البيزنطية التي استطاعت النزول في برقة خلف جيش زهير، الذي في أفريقية ممّا اضطر زهير للانسحاب إلى برقة ولكنهم هزموه هزيمة منكرة،⁽¹⁰⁵⁾ ونحن لا نعتقد ذلك لأن زهير لم يكن متهيء لقتال الأساطيل البحرية وقد كان معه 70 جندي فقط، فكما ذكرت المصادر الإسلامية أن زهير عاد لرباطه الأول في برقة، ولم يستحسن البقاء في أفريقية، وصادف الروم الذين انتقموا لهزائمهم في معارك القيروان البرية، واستغلوا ضعف البحرية الإسلامية فأتوا من جهة البحر بالأسطول البحري في القرن الأول

الهجري من صقلية وهي أقرب مركز بيزنطي لبرقة التي لم تكن محصنة ضد أعدائها من جهة البحر، ولم تشهد بعد تطور الخطوط الدفاعية البحرية لمنظومة الدفاع الإسلامية.

يذكر أنّ عبدالمك بن مروان اهتم بالبحرية الإسلامية ويعود ذلك إلى ما قاساه من بحرية أعدائه البيزنطيين،⁽¹⁰⁶⁾ وأول تلك التحصينات بناء قصور حسان بعيدة عن البحر على الأراضي الليبية سنة 80هـ، والتي من خلالها يمكنهم رؤية أي تحرك بحري يندرج بالخطر البيزنطي، ثم توالى التحصينات كما أسلفنا لهذه المدن، و"بعد مقتل الكاهنة وسيطرة المسلمين على أفريقيا أصبح شمال أفريقية مركزاً بحرياً ثالثاً أضيف إلى المركزين العربيين مصر وسوريا".⁽¹⁰⁷⁾

تشير المصادر التاريخية بشكل عرضي إلى تحصينات برقة المنيعة في القرون الإسلامية التالية ذكر ابن خلدون في برقة سنة 261 انتفض الناس على العامل محمد بن فرج الفرعاني والي ابن طولون فبعث ابن طولون العساكر وشدوا الحصار على برقة ونصبوا عليها المجانيق،⁽¹⁰⁸⁾ هذا مؤثر على أنّ برقة محمية بالأسوار مما اضطر الجيش الطولوني لاستخدام المجانيق لاقتحامها.

ذكر المنصوري من خلال حديثه عن المماليك بأنّ الظاهر بيبرس ضم برقة وحصونها بالكامل عام 671هـ. وذكر المنصوري سنة 672هـ في العهد المملوكي (الظاهر بيبرس) كان بلبوش (ثائر ضد المماليك) لما قام عربان برقة بالزكاة ابي إلا جماحا فؤاده ونفوراً قيادته فتوجه إليه بنو عزاز عبدالله ومقدم (والي المماليك على برقة) فقاتلوه وكسروه وأحضره إلى القاهرة، وأخذت في بلاده أبراج تسميها العريان بالحصون وعدتها حول السبعين حصناً،⁽¹⁰⁹⁾ كانت برقة تحميها تحصينات هائلة تصل إلى سبعين حصناً بالأبراج، فمن خلال هذه الأحداث نصل إلى أنّ برقة تمتعت بتحصينات قوية ففي هذه الفترة كانت تابعة لدولة المماليك في مصر، وتمتعت بتطور

ملحوظ في تحصيناتها خلال العصور التالية في ظل الخلافة الإسلامية ولم تستطع البحرية البيزنطية أو الإفرنجية أو الإسبانية من احتلالها.

من نتائج تلك التحصينات القوية في حماية برقة في القرن العاشر الهجري، عندما تعرضت لهجوم بحري بأساطيل فرسان مالطا سنة 916هـ ومحاولتهم احتلال جزء من المدينة فتصدى لهم أهلها وطردوهم على الفور، بفضل تلك الأبراج والحصون والأسوار، وبدون تلك التحصينات لتمكن الغزاة من نهب المدينة والسيطرة عليها.

تصدي أهل طرابلس لغارات الإفرنج في القرن السادس الهجري وطردهم بقيادة أبو يحيى رافع بن مطروح.

طرابلس مدينة محصنة تحصين منيع وتشكل أبراجها وقلاعها ومحارسها جزء من سلسلة دفاعات تحادي سواحل البحر المتوسط الجنوبية من الإسكندرية إلى سبته، وكادت أن تتحقق وحدة للبحر المتوسط في ظل السيادة الإسلامية⁽¹¹⁰⁾ بعد فتح الكثير من الجزر في المتوسط ووصولهم إلى سواحل المتوسط الشمالية،^(*) وكان للسيطرة على هذه الجزر أهمية في السيطرة على ضفتي حوض المتوسط،⁽¹¹¹⁾ وطول العهد الأغربي والفاطمي لم تتجرأ بيزنطة وروما على مهاجمة المدن الساحلية الليبية وغيرها على ضفة المتوسط الجنوبية، رغم أن نصارى صقلية كثيراً ما يحدثون أنفسهم بامتلاك طرابلس،⁽¹¹²⁾ وبعد ظهور النورمان الذين سيطروا على صقلية سنة 464هـ، ومن ثم اتخذوها دار ملكهم وجعلوها قاعدة بحرية للإغارة على سواحل بلاد المسلمين في أفريقية،⁽¹¹³⁾ فكانت سواحل المتوسط الجنوبية مطمع لهم ولكل حكام دول أوروبا.

تعرضت طرابلس لحملات نورمانية وكانت أولى الحملات سنة 537هـ، لاعتقادهم أن أهلها يرفضون طاعة ابن زيري الأمير حسن بن علي الاستقلال، واعتقدوا أيضاً أن حكامها المحليين ضعفاء وهم من بنى مطرح فارس راجار الثاني ملك صقلية الإفرنجي^(*) أسطولاً

للاستيلاء على طرابلس،⁽¹¹⁴⁾ ولكن نتيجة الدور الدفاعي الذي تقوم به تحصينات المدينة من أسوار عالية وأبراج مدافعة وقلاع وحصون متينة من جانب، واستعداد بنى مطرح وأهل طرابلس للدفاع عن مدينتهم من جانب آخر، فضلاً عن الدور الذي قامت به بعض القبائل العربية التي تسكن في ريف طرابلس وقيامها لنجدة أهل المدينة، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ولحق الباقون بالأسطول وتركوا الأسلحة والأثقال والدواب فنهباها العرب وأهل البلد ورجع الإفرنج إلى صقلية،⁽¹¹⁵⁾ وبذلك تحقق الهدف من إنشاء هذه التحصينات بتوافر الجهود لحماية المدينة من الغزاة، وعدم تمكينهم من السيطرة عليها، ممّا اضطرهم إلى العودة من أين أتوا يكرون أذيال الهزيمة.

يذكر النويري أنّ الغلاء تتابع في جميع بلدان المغرب من سنة 537هـ الى 542هـ والناس فارقوا البلاد وكثر الفناء، فاغتمت راجار هذه الفرصة وعمر أسطولاً نحو مائة وخمسين شينيا (مركبا) وشحنها بالرجال والعدد،⁽¹¹⁶⁾ وكلف جرجي بن ميخائيل الأنطاكي بقيادته فساروا الى طرابلس للمرة الثانية سنة 540هـ،⁽¹¹⁷⁾ فأحاط بها براً وبحراً ودامت الحرب بينهم ثلاثة أيام، فهذا الحصار الذي دام ثلاثة أيام لهذه الحملة الكبيرة يؤكد مناعة المدينة وقوة أسوارها في حمايتها وبسالة أهلها بقيادة أبناء مطروح الذين حكموها في الدفاع عنها، ولكن حصلت ظروف داخل المدينة لم تكن في صالحها قلبت الموازين وعرضت المدينة لخطر النورمان الإفرنج، لقد وقع بين أهل طرابلس خلاف أدى إلى تغلب أسطول النصارى عليها،⁽¹¹⁸⁾ ففي اليوم الثالث سمع الفرنجة صرخة عظيمة من داخل البلد، وخلت الأسوار من المقاتلة،⁽¹¹⁹⁾ لقد نزل الحماة والجنود والمدافعين من أبراج الأسوار ولن تمنع هذه الأسوار الفرنجة من الصعود إليها بسلام لتسلقها بكل أريحية بعد خلوها من المقاتلة الذين كان دورهم منع أي متسلق أو مخترق لها. إذاً فالتحصينات كانت منيعة وحفقت الهدف، ولكن لخلوها من المدافعين أخفقت في حماية المدينة.

وسبب ذلك أنّ أهل طرابلس قبل وصول الإفرنج بأيام قليلة قد اختلفوا وأخرجت بنو مطرح طائفةً وقدموا على أنفسهم رجلاً من الملتمين فولوه امرهم فلما نازلهم الفرنج أغارت تلك الطائفة على بنى مطرح فوقعت الحرب بين الطرفين، وخلت الأسوار فانتهز الفرنج الفرصة وعلقوا الكلاب في سوره ونصبوا السلالم وصعدوا الأسوار وملكوا المدينة وسفكوا دماء أهلها وسبوا نساءهم ونهبوا أموالهم،⁽¹²⁰⁾ وأقام الفرنج اثني عشر عاماً أو نحوها،⁽¹²¹⁾ وأصبحت في طاعته ومعدودة في جملة بلاده،⁽¹²²⁾ ولكن عندما علم سكان المدينة بقدم الموحدين سنة 553هـ، ثم أنّ أبا يحيى بن مطروح مشى في أعيان أهل البلد وحرصهم على الإفرنج فاجتمعوا لذلك وفتكوا بهم واحرقوهم بالنار⁽¹²³⁾ وطردوهم من المدينة واستقام أمرها لأبي يحيى بن مطرح وعمرت سريعاً،⁽¹²⁴⁾ وهذه المرة الوحيدة التي أخذ فيها النصارى طرابلس بعد فتحها منذ ستة قرون.⁽¹²⁵⁾

تعرض طرابلس لغزو الجنوبيين (تجار جنوة) سنة 755هـ

تردد على مدينة طرابلس كثيراً من التجار الأجانب الوافدين من بيزنطة والأندلس وصقلية وبلاد غرب أوروبا،⁽¹²⁶⁾ وازدهمت برقة كذلك ببضائع الشرق والغرب أما طرابلس فكانت على رأس أحد الطرق الهامة فكانت مركزاً لتجارة الرقيق بين السودان وأوروبا.⁽¹²⁷⁾

كان تجار جنوة يترددون على طرابلس فاطلعوا على محاسنها وعوراتها واضمروا غزوها فوافوا مرساها سنة 755هـ وانتشروا بالبلد في حاجاتهم ثم بيوتها، وفي غفلة من أهلها ذات ليلة صعدوا أسوارها وملكوها عليهم، وهتف هاتفهم بالحرب وقد لبسوا السلاح واستباحوا المدينة وملكوا ما فيها في سفنهم من المتاع والأسرى،⁽¹²⁸⁾ فلكثر طروقهم عليها وترددهم في سبيل التجارة وكثرة ما يغشاها من سفنهم فغدروا ليلاً بالمدينة، وهؤلاء بهذه الصفة فهم ليسوا جنوداً وإنما تجارا طامعين بعدما رأوا العز الذي تتمتع به هذه المدينة وحال أهلها من الترف، لكن العياشي ذكر غير ذلك بقوله: قدمت سفن للنصارى تجاراً بسلع كثيرة فنزلت بالمراسي، فنزل لهم رجل اشترى

منهم كل بضاعتهم ونقد لهم ثمنها، ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاماً فاخراً وعندما عادوا إلى بلدهم سألهم ملكهم عن حال البلد التي قدموا منها فقالوا: ما رأينا بلداً أكثر منها مالاً وأقل سلاحاً وأعجز أهلاً عن مدافعة عدو، فتأهب ملكهم لدخولها في مراكب البحر فدخلها في ليلة واحدة بلا كثير مشقة واستولى عليها،⁽¹²⁹⁾ ولا نعتقد أن رواية العياشي دقيقة فهو عاش متأخر عن تلك الأحداث بحوالي قرنين من الزمان، كذلك التحصينات كانت في القرن الثامن الهجري بمدينة طرابلس قوية ومتطورة ومتجددة باستمرار، وقد وصف لنا التيجاني تلك التحصينات والأسوار والخنائق والأبراج والقلاع، فكيف يستطيع هذا الملك دخول طرابلس في ليلة، وهي بهذا التحصين، ونرجح ما ذكره ابن خلدون الذي كان معاصراً لتلك الأحداث فهو ولد في 732 هـ. واحتلال المدينة في ليلة واحد يتلاءم مع ما ذكره ابن خلدون من غدرهم بالمدينة وأهلها وسيطرتهم من الداخل على أبراجها وقلاعها بعد اعتلائها والناس غافلة عنهم بصفتهم ضيوف وتجار مسالمين، ويضيف ابن خلدون ما يؤكد أنهم تجار غدروا بالمدينة فبعد سيطرتهم عليها ونهب ما فيها وجمعه في المراكب وأقاموا بالبلد أياماً على قلقه ورهب من الكرة،⁽¹³⁰⁾ هذا القلق والخوف من أن يكر عليهم أهل البلد أو المسلمين من بلدان الجوار يشير إلى أنهم تجار همهم الغنيمة والهرب فلو كان ملك وجنود لكانوا على استعداد لأي ردة فعل من المسلمين وأهل البلد وكانوا مسلحين بالعدة والعتاد، ويضيف ابن خلدون تحدثوا مع من جاورها من المسلمين في فدائها،⁽¹³¹⁾ كانوا يبحثون عمّن يدفع لهم الأموال ليغادروها، داخلهم أحمد بن مكى صاحب قابس في فدائها، فاشترطوا عليه مثقال خمسين ألف من الذهب،⁽¹³²⁾ فلو كان ملكاً وجنود لاستوطنها وملكها وجعلها من ضمن املاكه ولا يساوم عليها بالمال، وعجلوا عليه،⁽¹³³⁾ نتيجة الخوف والقلق فكانوا مستعجلين، فجمع ما عنده واستوهب ما بقى من أهل قابس والحامة وبلاد الجريد فجمعوها له محبة ورغبة في الخير،⁽¹³⁴⁾ فهؤلاء جازفوا بسرقة المدينة لما رأوه من تساهل مع

دخلاء المدينة ومن تراخى في حق المدينة من زيادة الحراسة والمراقبة والمتابعة فهذا التسبب الداخلي جعل التجار يفكرون في امتلاك المدينة واستباحة ما فيها من خيرات حتى أنهم حملوا كل ما وجدوه في سفن وأرسلوه لمدنهم،⁽¹³⁵⁾ ولشدة الطمع فاوضوا على التسليم بمقابل الذهب وطلبوا العجلة لخوفهم من الهزيمة اذا ما اتحدوا عليهم.

غارات الأسبان على طرابلس في القرن العاشر الهجري واستماتة أهل طرابلس في الدفاع عن مدينتهم.

بعد سقوط الأندلس صارت لأسبانيا السيطرة على حوض المتوسط ومن أهدافها ملاحقة الفارين من الأندلس لبلدان أفريقية، والقضاء على المسلمين وكان مخططهم السيطرة على مدن شمال أفريقية وجعلها قواعد أسبانية لتتم السيطرة على كامل الحوض الشرقي والغربي للمتوسط خاصة في وجود قوة إسلامية عثمانية منافسة لها في شرق الحوض فلا بد من إحكام السيطرة على الجزء الغربي بالكامل للحوض بغرض السيطرة على كل الموانئ البحرية، ومن جانب آخر خبر الأسبان عمليات المسلمين الحربية في البحر وخبروا المدن الإسلامية في الضفة الجنوبية للحوض من خلال تجارهم الذين يصلون ويجولون دون رادع ولا قوانين تضبطهم وتنظم حركتهم داخل المدن الإسلامية.

أعلنت أسبانيا تبعية الولايات الإيطالية لها بتزكية من البابا كما أعلنت تبعية فرسان القديس حنا لإمبراطورية شارلمان تحت مظاهر الرغبة في نشر المسيحية التي كانت تؤيدها الكنيسة الكاثوليكية في إيطاليا بالإضافة إلى مصاهرة هذا الإمبراطور لملوك أوروبا بتزويجهم أخواته".⁽¹³⁶⁾

مرت مدينة طرابلس عشية الغزو الإسباني لها سنة 916هـ بحروب أهلية بين عائلتين مزقت شمل البلاد وانتهت بتعيين سيدي منصور من أعيان طرابلس وطرده الوالي الحفصي منها

وهذا جرهم إلى حروب دامية بين أهل طرابلس والسلطان الحفصي في تونس الذي ناصبهم العداوة لمدة عامين، وبعدها رضى بالأمر الواقع وبخروج طرابلس من مملكته وحدثت فتنة أخرى داخل المدينة أدت إلى مقتل سيدي منصور الذي بايعته كل المدن الليبية المجاورة كبنى وليد وترهونة وغيرها، وبايع أهل طرابلس ولاة آخرين تعاقبوا على حكم المدينة في فترات قصيرة آخرهم الشيخ عبدالله بن شرف. (137)

كلف فردينالذ ملك أسبانيا نظيره ملك صقلية بتموين الجيوش الأسبانية التي احتلت سواحل الجزائر واتجه أسطول أسباني إلى صقلية ينتظر السفن القادمة من نابولي، ومن موانئ صقلية لمهاجمة طرابلس حسب التعليمات التي تلقاها من الإمبراطور فرديناند الكاثوليكي. (138) ونتيجة احتلالهم لسواحل الجزائر وتونس توقف خط الاتصال بالمحارس والأبراج الذي يربط الاسكندرية بسبته، وبذلك يتعذر التنبيه عن اقتراب الغزاة للمدن الأخرى. مر الأسطول بجزيرة مالطا حيث استجد بأهل الخبرة ممن زار طرابلس وسواحل شمال أفريقيا مثل جوليان ابيلو المالطي وأحد ضباط جيش البندقية وهو الكولونيل جيرلامو كما تداعمت الحملة بخمسة عشر سفينة بقيادة غاريسيا والدوق ألبا، (139) دخلت الجيوش الأسبانية المدججة بالسلاح مدينة طرابلس بستين سفينة حربية إلى جانب الزوارق الحربية والمراكب بمجموع 15 ألف جندي أسباني و3 الآف جندي إيطالي وعدد من المرتزقة، (140) وقد بدأت نيران مدافع الأسطول تسقط على المدينة على الساحل من الجنوب الشرقي للمدينة، ووصف أحد الجنود الأسبان الذين شاركوا في الحملة مناعة أسوار المدينة وتحصيناتها بقوله: يحيط بطرابلس أسوار يبلغ امتدادها أكثر من ميل ولها سوران مزدوجان تحف بهما خنادق منخفضة وضيقة السور الأول: فصيل منخفض أما السور الثاني مرتفع جداً وضخامته متناسبة مع الأبراج وهي ذات مواقع دفاعية فخمة ولها ميناء ممتاز قادر إيواء أربعمائة سفينة ومركب من ذات المجاديف، (141) بالفعل هذا ما ذكره التيجاني في القرن

الثامن الهجري عن تحصين المدينة وحامياتها، ودور السور في منع المهاجمين من تحقيق أهدافهم، ومن كثر ما ابهرته هذه المدينة يتحسر هذا المشارك في الحملة لو ضاعت منهم طرابلس بقوله: ومن أجل ذلك ضياع هذه المدينة مبعث للأسى والاسف.⁽¹⁴²⁾

كانت خطة الأسبان نزول ستة آلاف جندي أسباني إلى البر بمهاجمة الأسوار بينما البقية في الخط الخفي لحماية المهاجمين، وكل ذلك بمساعدة المدفعية، بهذا السلاح الجديد استطاع الأسبان اختراق تحصينات المدينة فلقد تسلطت هذه المدفعية على برجين من الأبراج، وعلى السور المحاذي لهما واستطاعوا السيطرة على البرج القريب من أحد أبواب المدينة، وهو باب العرب وفتحوه،⁽¹⁴³⁾ الباب المقابل للحي السكنى للعرب في المدينة خاصة وأن سكان المدينة جلمهم من العرب،⁽¹⁴⁴⁾ وبالتأكيد استطاعوا تدمير السور الذي لم يصمد أمام هذه المدفعية الحديثة والتي لم يتطور السور ليعيق تقدمهم، وصعدوا للبرج ومن ثم فتحوا الباب.

يتضح لنا أن تحصينات طرابلس لم تكن متهيئة تهيئاً لتصمد أمام هذا السلاح الجديد (البارود) الذي تقذفه المدافع على الأسوار والأبراج لتحطمها، فلقد أصبح البارود وسيلة الدفاع والهجوم بدل الأسلحة التقليدية السهام والرمح، ممّا يستوجب تعديل القلاع والأسوار بما يكفل مقاومة تأثير هذا السلاح وأضراره، فكان ينقص أهل المدينة الأسلحة الحربية المماثلة. وهذه المدفعية هي التي مهدت الطريق لدخول الأسبان للمدينة فدخلوا دفعة واحدة (كأنهم أسراب الطيور)،⁽¹⁴⁵⁾ مما أربك الأهالي والمدافعين وأفزعهم رغم محاولتهم المستميتة في الدفاع عن مدينتهم وهذا ما شهد به الأسبان أنفسهم عندما قالوا: إن سكان طرابلس أبلوا بلاءً حسناً واستماتوا في سبيل الدفاع عن مدينتهم وعائلاتهم.⁽¹⁴⁶⁾

إن غزو طرابلس كان مدبراً لقد أخذوا وقتاً طويلاً في الإعداد له، فطلبوا المعونة والتموين من خازن أموال مالقة وكل من استطاع المساعدة لإنجاح هذه الحملة لاحتلال طرابلس، وكانت

نقطة التجمع والانطلاق من صقلية وفي رسالة من الإمبراطور الى قائد الحملة كتب له فيها " إذا أردنا الاستقرار في افريقيا ينبغي أن نحتل وهران وبجاية وطرابلس وأن نسكنها بالمسيحيين".⁽¹⁴⁷⁾ ويصف قائد الحملة طرابلس للإمبراطور الأسباني بعد احتلال طرابلس ويقارنها بغيرها من المدن التي احتلها الأسبان: سيدي إن هذه المدينة أكبر في واقعها ممّا كنت اتصور ومن تحدث عنها لم يقل إلا نصف الحقيقة، سواء فيما يتصل بنظافتها أو تحصينها حتى لا تبدو مدينة إمبراطور أكثر منها مدينة لا تنتمي لأي ملك خاص".⁽¹⁴⁸⁾ بهرتهم جميعاً من زارها قديماً أو من احتلها حديثاً حيث كان لهذه المدينة شهرتها وأهميتها بين الأوروبيين النصارى الذي استخسروا أن تكون هذه المدينة في يد المسلمين فبحقدهم الصليبي عزموا على احتلالها والانتقام من كل مسلم بها، وما يؤكد أهمية هذه المدينة للنصارى الأسبان وغيرهم الاحتفالات التي أقيمت في مدن إيطاليا ومدن أسبانيا للاحتفال بسقوطها في أيديهم لقد احتفل مرشد رودس ودوق البندقية وشارل الأسباني،⁽¹⁴⁹⁾ وكان ذلك الحدث كان حلمًا وتحقق في الوقت الذي لم يتوقعوا فيه نجاح حملتهم لما كانت تعرف به هذه المدينة من تحصينات قوية تحميها أمام أي غزو، وما يؤكد لنا أنه حلم أيضاً فهم لم يتعدوا حدودها لاحتلال أي مدينة أو قرية تجاورها، فهمهم كان هذه المدينة فقط.

تمكنت المقاومة الليبية بعد احتلال الأسبان لطرابلس من مهاجمة الأسبان بعد حصار من ناحية البر دام سبعة أشهر وكادوا أن يستعيدوا طرابلس لولا استخدام الأسبان لسلاح آخر متطور وهو اللغم والذي راح ضحيته أعداد كبيرة من المقاومة الليبية، إذ التحصينات كانت جيدة وتتناسب مع السلاح التقليدي ولكن مع تقدم العصور والقرون كان يستوجب تطويرها لتتناسب في مقاومتها للأسلحة الحديثة التي يستخدمها النصارى مؤخراً.

النتائج:

- 1) إنَّ المحارس والحاميات والأسوار باتت أمر ضروري لأي مدينة إسلامية خاصة تلك المدن التي تطل على البحار المواجهة للنصارى لحمايتها وبعث الأمن والاستقرار بين سكَّانها.
- 2) شهدت مدن برقة ومدينة طرابلس تطوراً كبيراً في بناء الاستحكامات الدفاعية وتصميماتها من أسوار وقلاع وأبراج وحصون، وهذا التطور كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتطور وسائل الهجوم التقليدية للغزاة النصارى ما بين القرن الثاني للهجرة حتى القرن التاسع للهجرة، لتحقيق هدفها وهو إعاقة تقدم الغزاة للمدينة فبنيت بالأحجار الصلبة.
- 3) نتيجة الشهرة التي عرفت بها استحكامات تلك المدن خاصة طرابلس حيث وصل صيتها لمسامع ملوك النصارى فلم يتجرؤوا لغزوها خلال القرون الخمسة الأولى للهجرة.
- 4) بعد اكتشاف النصارى للأسلحة الحديثة (البارود) المدفعية والألغام في القرن العاشر الهجري والذي تطلقه المدافع على الأسوار والأبراج والمدافع خلفها، لم تصمد الاستحكامات والحاميات في طرابلس أمامه لأنها لم تتطور بعد لتصمد أمام هذا السلاح الجديد.
- 5) عكست تلك الاستحكامات الدفاعية صلابة المدن الليبية وبينت كفاءة ودور الحاميات وقوتها أمام محاولات غزو النصارى المتكررة لها بعد القرن السادس الهجري إلى القرن العاشر الهجري.
- 6) بينت الدراسة أنَّ العامل الأساسي في اختراق تحصينات مدينة طرابلس هو التفكك الداخلي بين سكان المدينة الذي عرضها للاحتلال الإفرنجي والأسباني، كذلك عدم وجود ضوابط للتجار النصارى، وضعف جهاز الاستخبارات داخل المدينة كل ذلك جعل الجواسيس يدخلون بصفة تجار للوقوف على نقاط الضعف التي تيسر لهم اختراقها.

(7) رأى الليبيون لا مناص من وجود قوة بحرية للمشاركة في الفتوحات الإسلامية فتم بناء دار لصناعة السفن الحربية في مرسى طرابلس، وأصبحت تمتلك المدينة أسطولاً بحرياً خاصاً بها شارك في العديد من الفتوحات البحرية.

الهوامش:

- (1) انظر : ابن حوقل، صورة الارض، ص174.
- (2) ابن خلدون، العبر، ج1، ص59.
- (3) محمود شيت، قادة فتح المغرب العربي، ج1، ص36.
- (4) محمود شيت، قادة فتح المغرب العربي، ج1، ص38.
- (5) عبدالعزيز سالم ، ومختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص23.
- (6) محمود أبو صوة، دراسات في تاريخ البحر المتوسط، ص7.
- (7) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص146.
- (8) ابن عبدالحكم ، فتوح البلدان، ص232.
- (9) المراكشي، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، ص347.
- (10) ابن سباهي، أوضح المسالك ، ص206، 207.
- (11) الإدريسي/ نزهة المشتاق، ص311.
- (12) الإدريسي/ نزهة المشتاق، ص311.
- (13) محمود شيت، عمر بن العاص، ص123.
- (14) محمود شيت، قادة فتح المغرب العربي، ج1، ص36.
- (15) ابن سباهي، أوضح المسالك ، ص206، 207.
- (16) محمد عبدالستار، المدينة الإسلامية، ص121، 122.
- (17) ابن خلدون، العبر، ج4، ص259.

- (18) ابن خلدون، العبر، ج4، ص257.
- (19) مسعود عبدالله، ملامح الحياة الفكرية والثقافية في ليبيا، مجلة الجامعة، العدد 15، مج3، 2013م، ص128.
- (20) علي الميلودي، القلاع والحصون، ص191.
- (21) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص347، 348.
- (22) علي الميلودي، القلاع والحصون، ص209.
- (23) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص241.
- (24) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص37.
- (25) علي الميلودي، القلاع والحصون، ص190.
- (26) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص348.
- (27) علي الميلودي، القلاع والحصون، ص194.
- (28) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص201.
- (29) ابن سباهي، اوضح المسالك، ص207.
- (30) المنصوري، مختار الاخبار، ص50.
- (31) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص147.
- (32) القلصادي، رحلة القلصادي، ص159.
- (33) العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص182، 183.
- (34) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص187.
- (35) العمري، مسالك الأبصار، ج2، ص182، 183.
- (36) مخطوط رحلة أبو عبدالله الطيب الحجازية، ورقة 51.
- (37) عماد خليل، السفن والموانئ في البحر المتوسط، ص687.
- (38) ابن خلدون، العبر، ج1، ص77.
- (39) المقریزی، جنی الأزهار، ص74.

- (40) ابن حوقل، صورة الارض، ص70.
- (41) البكري، المسالك والممالك ، ص651.
- (42) حسين مسعود أبومدينة، جغرافية ميناء طرابلس الغرب، ص21.
- (43) الطاهر أحمد الزاوي، معجم البلدان الليبية ، ص26.
- (44) حسين مسعود أبومدينة، جغرافية ميناء طرابلس الغرب، ص23.
- (45) ابن خلدون، العبر، ج1، ص435.
- (46) ابن خلدون، العبر، ج1، ص573.
- (47) الحميري، الروض المعطار، ج1، ص390.
- (48) البكري، المسالك والممالك، ض655، القيرواني، تاريخ أفريقيا والمغرب، ص168.
- (49) التيجاني، رحلة التيجاني، ص239، 240، القيرواني، تاريخ أفريقيا والمغرب ، ص186.
- (50) محمود أبو صوة، دراسات في تاريخ البحر المتوسط، ص39.
- (51) البكري، المسالك والممالك، ض655، القيرواني، تاريخ أفريقيا والمغرب، ص653.
- (52) مجهول، الاستبصار، ص110
- (53) التيجاني، رحلة التيجاني، ص240.
- (54) التيجاني، رحلة التيجاني، ص238.
- (55) محمود أبو صوة، دراسات في تاريخ البحر المتوسط، ص15.
- (56) التيجاني، رحلة التيجاني، ص246.
- (* العبدري زار طرابلس في القرن السادس فذكر "وقد دلت آثار تلك البلاد على ضخامة مملكتها في غابر الزمان على ضد ما هي عليه الآن" العبدري، رحلة العبدري، ص196، وزارها فيما بعد التيجاني فبهرتة تحصيناتها ومبانيها عكس العبدري الذي لم يعجبه غير قبة باب البحر.
- (57) العبدري، رحلة العبدري، ص195.
- (58) ابو عبدالله الطيب، مخطوط الرحلة الحجازية، ورقة 44.

- (59) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص53.
- (60) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص53.
- (61) التيجاني، رحلة التيجاني، ص246.
- (62) المالكي، رياض النفوس، ج1، ص17.
- (63) المالكي، رياض النفوس، ج1، ص17.
- (64) محمود ابو صوة، دراسات في تاريخ البحر المتوسط، ص29.
- (65) العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص135.
- (66) العياشي، الرحلة العياشية، ج1، ص177.
- (67) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص53.
- (68) ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية، ص312.
- (69) الحميري، الروض المعطار، ج1، ص389.
- (70) حسين مسعود أبومدينة، جغرافية ميناء طرابلس الغرب، ص22.
- (71) ابن حوقل، صورة الارض، ص72.
- (72) البكري، المسالك والممالك، ص653، الحموي، معجم البلدان، ج4، ص25.
- (73) عماد خليل، السفن والموانئ في البحر المتوسط، ص700.
- (74) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص192.
- (75) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص198.
- (76) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص192.
- (77) التيجاني، رحلة التيجاني، ص246.
- (78) التيجاني، رحلة التيجاني، ص246.
- (79) التيجاني، رحلة التيجاني، ص211.
- (80) التيجاني، رحلة التيجاني، ص212.
- (81) التيجاني، رحلة التيجاني، ص219.

- (82) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص196.
- (83) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص199.
- (84) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص200.
- (85) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص200.
- (86) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص194.
- (87) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص209.
- (88) التيجاني، رحلة التيجاني، ص220.
- (89) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص194.
- (90) البكري، المسالك والممالك ، ص656.
- (91) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص36.
- (92) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص44.
- (93) الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص185.
- (94) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص48.
- (95) علي الميلودي، القصور والقلاع والحصون، ص49.
- (*) له صحبة وشهد فتح مصر وولاه عبدالعزيز بن مروان والياً على برقة سنة 69هـ فكانت له مع الروم وقائع، والبلوي قبيلة من قبائل فضاة، ابن خلكان، الأعلام، ج3، ص52.
- (96) ابن عذاري، البيان المغرب ، ج1، ص24.
- (97) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص31.
- (98) ابن خلدون، العبر، ج4، ص238.
- (99) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج3، ص453.
- (100) النويري ، نهاية الارب، ج24، ص17.
- (101) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص33.
- (102) البلاذري، فتوح البلدان، ص321.

- (103) ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص33.
- (104) النويري، نهاية الارب، ج24، ص17.
- (105) ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية، ص99.
- (106) ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية، ص100.
- (107) ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية، ص101.
- (108) ابن خلدون، العبر، ج4، ص393.
- (109) المنصوري، مختار الاخبار، ص49،50.
- (110) محمود أبو صوة، دراسات في تاريخ البحر المتوسط، ص8.
- (* حملات المسلمين على سواحل البحر المتوسط الشمالية والجزر القريبة منه، عبدالرحمن بن حبيب اغزى صقلية ثم بعث إلى سردينيا فقتل من بها قتلاً دريعاً ثم صالحوه على الجزية وبعث إلى افرنجة فأتى بسببها سنة 135هـ، ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص61، سنة902م قام الأغالبة بضربتهم القوية ضد ايطالي والجزر المحيطة بها وقام إبراهيم بن الأغلب بانتصاراته وعبر المضيق إلى قلورية غير أن وفاته حررت إيطاليا من هول ماتعرضت له طبرمين، ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية، ص221، ولم يفت هذا العام 902م حتى وقعت صقلية في قبضة المسلمين على الرغم من الكفاح المرير الذي قامت به بيزنطة، ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية، ص221، سنة 225هـ سار أسطول إلى قلورية ففتحوها في عهد الأغلب بن إبراهيم أبو العقال، ابن خلدون، العبر، ج4، ص255، بعث إبراهيم بن الأغلب ابنه أبا العباس إلى صقلية سنة 287هـ فوصل إليها في مائة وستين مركبا، ابن خلدون، العبر، ج4، ص260، فجاء مدد من القسطنطينية إلى الروم في صقلية فهزمهم وأخذ له ثلاثين مركباً، ابن خلدون، العبر، ج4، ص260، ثم أجاز إلى عدوة الروم ووقع بأمام الفرنجة من وراء البحر ورجع إلى صقلية، ابن خلدون، العبر، ج4، ص260. عين الشيعة على صقلية الحسن بن احمد والياً فسار إليها ونزل البحر سنة 297هـ وولى أخاه على كريت ثم أجاز البحر سنة 298هـ إلى العدوة

- الشمالية ونزل بسيط قلورية من بلاد الإفرنج فاتخن فيها ورجع إلى صقلية، ابن خلدون، ج4، ص47، أخرج الخليفة الفاطمي القائم بامر الله يعقوب بن إسحاق إلى بلد الروم في اسطولا ففتح جنوة سنة 323هـ ومر بسردينة واحرقوا مراكب كثيرة، ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص209، النويري، نهاية الأرب، ج24، ص301.
- (111) محمود أبو صوة، دراسات في تاريخ البحر المتوسط، ص17.
- (112) أحمد الأنصاري، المنهل العذب، ص166، ابن خلدون، العبر، ج6، ص535.
- (113) المراكشي، المعجب، ص252.
- (* صقلية ملكها إبراهيم بن الأغلب وظلت تحت سيطرة الأغلبة زمانا ثم حكمها العبيديون ثم الكلبيون بنو الحسن بن علي الكلبى ثم كان استيلاء النورمان الفرنجة عليها سنة 464هـ، جعلوها دار ملكهم، المراكشي، المعجب، ص252. زاد نشاط النورمان في البحر المتوسط منذ عام 407هـ وبالأصل هم مرتزقة للدولة البيزنطية والبابوية في إيطاليا وأقاموا لأنفسهم مركز للسلب والنهب منذ سنة 432هـ، النورمان قبل الهجوم على طرابلس قرروا إنشاء أسطول بحري يساعدهم على استرجاع المراحل والمحطات صقلية، مالطا، سردينيا، طرابلس في سنة 453هـ باسروا في استعادة صقلية وتمكنوا من استعادتها كاملة سنة 464هـ وفي سنة 494هـ احتلوا مالطا وسنة 538هـ احتلوا جربة وبعد قرابة 8 سنوات احتل النورمان طرابلس محمود أبو صوة، دراسات في تاريخ البحر المتوسط، ص118.
- (114) النويري، نهاية الأرب، ج24، ص136، ابن غلبون، التذكار، ص49، ص50.
- (115) ابن غلبون، التذكار، ص48
- (116) النويري، نهاية الأرب، ج24، ص136.
- (117) ابن خلدون، العبر، ج6، ص223.
- (118) التيجاني، رحلة التيجاني، ص242.
- (119) النويري، نهاية الأرب، ج24، ص136.
- (120) النويري، نهاية الأرب، ج24، ص136.

- (121) التيجاني، رحلة التيجاني، ص 242.
- (122) الادريسي/ نزهة المشتاق، ص 297.
- (123) ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 223.
- (124) التيجاني، رحلة التيجاني، ص 242.
- (125) التيجاني، رحلة التيجاني، ص 243.
- (126) ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية، ص 328.
- (127) ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية، ص 330.
- (128) أحمد الأنصاري، المنهل العذب، ص 166. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 536.
- (129) العياشي، رحلة العياشي، ج 1، ص 143.
- (130) ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 616.
- (131) ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 616.
- (132) أحمد الأنصاري، المنهل العذب، ص 166. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 536.
- (133) أحمد الأنصاري، المنهل العذب، ص 166. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 536.
- (134) أحمد الأنصاري، المنهل العذب، ص 166. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 536.
- (135) ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 536.
- (136) مصطفى عبيد، طرابلس الغرب من الاحتلال الأسباني إلى دخول العثمانيين، ص 321.
- (137) انظر : الباروني، فرسان القديس يوحنا الأسبان في طرابلس، ص 16 - 22.
- (138) مصطفى عبيد، طرابلس الغرب، ص 324.
- (139) مصطفى عبيد، طرابلس الغرب، ص 324.
- (140) مصطفى عبيد، طرابلس الغرب، ص 324.
- (141) اتوري روسي، ليبيا منذ الفتح، ص 171، 172.
- (142) اتوري روسي، ليبيا منذ الفتح، ص 172.

- (143) اتوري روسي، ليبيا منذ الفتح، ص172.
- (144) اتوري روسي، ليبيا منذ الفتح، ص172.
- (145) اتوري روسي، ليبيا منذ الفتح، ص172.
- (146) انظر : الباروني، فرسان القديس يوحنا الأسبان في طرابلس، ص 22.
- (147) انظر : الباروني، فرسان القديس يوحنا الأسبان في طرابلس، ص 29.
- (148) اتوري روسي، ليبيا منذ الفتح، ص171.
- (149) ابراهيم علاء الدين ، اوضاع طرابلس ما بين الاحتلال الاسباني والنجدة العثمانية، ص330.

قائمة المصادر والمراجع والدوريات

مخطوط الرحلة الحجازية للسيد أبو عبدالله الشهير بالطيب سنة 1339هـ.

المصادر:

- 1- ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، ت: أبي الفداء عبدالله، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1987م.
- 2- الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مج11، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2002م
- 3- البكري، ابو عبيدة عبدالله بن عبدالعزيز، المسالك والممالك، ت: ادريان فان، اندري فيري، دار الغرب الاسلامي، تونس، 1992م.
- 4- البلاذري، أبي العباس أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، ت: عبدالله انيس، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، 1987م
- 5- التيجاني، أبو عبدالله محمد بن أحمد (ق: 8هـ)، رحلة التيجاني، ت: حسن حسني، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981م.
- 6- الحميري، محمد عبدالمنعم الحميري(ت:900هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، ت: احسان عباس، مكتبة لبنان، د.ب.
- 7- ابن حوقل أبو القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992م.
- 8- ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر، ت:سهيل زكار، ج2، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، 2000م.

- 9 - ابن خلكان، شمس الدين أحمد، وفيات الأعيان، ت: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت لبنان، د.ت.
- 10- الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقيا والمغرب، ت: محمد زينهم، دار الفرجاني للطباعة والنشر، 1994م.
- 11- ابن سباهي محمد بن علي البروسوي، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، ت: المهدي عيد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006م.
- 12- عبدالواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ت: محمد سعيد، د.دار، د.ت.
- 13- العبدري ابي عبدالله محمد، رحلة العبدري، ت: علي ابراهيم، دار سعد الدين للنشر، دمشق، 2005م.
- 14- ابن عذاري، ابو العباس أحمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ت: ح. س.ك، دار الثقافة، بيروت ، لبنان، 1983م.
- 15- علي بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ت: إسماعيل العربي، منشورات المكتب لعربي للطباعة، بيروت، لبنان، 1970.
- 16- العياشي عبدالله بن محمد، الرحلة العياشية، ت: سعد الفاضلي، دار السويدي للنشر، الإمارات، أبوظبي، 2005م.
- 17- ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ت: كامل سلمان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971م.
- 18- القلصادي أبي الحسن علي، رحلة القلصادي، ت: محمد ابو الاجفان، الشركة التونسية للتوزيع، د.ت.

- 19-المالكي أبي بكر بن عبدالله، رياض النفوس، ت: بشير البكوش، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م.
- 20-مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، ت: سعد زغلول، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، 1985م.
- 21-المقریزی تقي الدين احمد بن علي، جنى الأزهار من الروض المعطار، ت: محمد زينهم، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 2006م.
- 22-المنصوري بيبرس، مختار الأخبار، ت: عبدالحميد صالح، دار المصرية اللبنانية، د.ت.
- 23-النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، ت: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.

المراجع:

- 1-اتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ت: خليفة التليسي، ط2، توزيع الدار العربية للكتاب، 1991م.
- 2-أحمد بيك الانصاري، المنهل العذب، منشورات مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، د.ت.
- 3-ارشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط، ت: احمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، د.ت.
- 4-حسين مسعود أبومدينة، جغرافية ميناء طرابلس الغرب، دار مكتبة الشعب للنشر، مصراته، ليبيا، 2005م.
- 5-الطاهر أحمد الزواوي، معجم البلدان الليبية، مكتبة النور طرابلس، 1968م.
- 6-عبدالعزیز سالم، ومختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة، بيروت، لبنان، العربية، 1969م.
- 7-علي الميلودي عمورة، القلاع والحصون والقصور والمحارس، منشورات مركز جهاد الليبيين، الجماهيرية الليبية، 2005م.

- 8- عمر محمد الباروني، الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، طرابلس، ليبيا، 1952م.
- 9- محمد بن خليل ابن غلبون، تاريخ طرابلس الغرب التذكار، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2004م.
- 10- محمد عبدالستار، المدينة الإسلامية، المركز الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1988م.
- 11- محمود شيت، عمر بن العاص، مركز تحقيقات إسلامي، ط1، قطر، 1996م.
- 12- محمود شيت، قادة فتح المغرب العربي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1984م.
- 13- محمود أبو صوة، دراسات في تاريخ البحر الأبيض المتوسط، منشورات ELGA ، فاليتا ، مالطا، 2000م.

الدوريات:

- 1- إبراهيم علاء الدين ، أوضاع طرابلس ما بين الاحتلال الأسباني والنجدة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، جامعة تشرين، العددان 127، 128، كانون الاول ، 2014م.
- 2- عماد خليل، السفن والموانئ في البحر المتوسط،، مجلة دراسات في آثار الوطن العربي، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، العدد 14.
- 3- مسعود عبدالله، ملامح الحياة الفكرية والثقافية في ليبيا أواخر العهد العثماني، المجلة الجامعة، جامعة الزاوية، العدد 15، مج3، 2013م.
- 4- مصطفى عبيد، طرابلس الغرب من الاحتلال الأسباني إلى دخول العثمانيين 1510: 1551م، مجلة الآداب والحضارة الإسلامية، كلية الآداب جامعة الأمير عبدالقادر، قسنطينة ، الجزائر العدد18، سبتمبر 2015م.